مصطفى محمود..

موال فى عشق الغلابة

براءة العصفور.. وصلابة المصارع.. دهشة الطفولة.. وخبرة الحكيم.. جرأة المحارب.. وسماحة الداعية.. تقشف الزاهد.. والكرم الحاتمى.. قلب الشاعر.. وعقل الجراح.. وغيرها من الثنائيات التى لاتنتهى ظلت محفورة على خلايا العالم والفنان د. مصطفى محمود والذى عاش طوال عمره فى متوالية لا نهائية من الثنائيات التى شكلت وجدانه ورؤاه.. فمن الطب والمرض.. إلى الأدب والطب.. إلى الشك والإيمان.. إلى العلم والإيمان.

وهكذا عاش دوما يصارع الأمواج والأنواء بنفس راضية وقلب مطمئن وإصرار فولاذى ومشاعر شجية وكأنها آلة نـاى اختصرت كل تراث الشجن المصرى فى نغماتها.. ولم لا فقد كان منذ أول شهيق له فى الدنيا على موعد مع الأشجان حيث جاء إلى الدنيا بعد سبعة أشهر فقط ومعه توأمه سعد والذى مات بعد أيام قليلة ليترك توأمه صاحب الاسم المركب «مصطفى كمال» تحت وطأة ضعف البنية وقسوة المرض.. وينتمى الفتى لأسرة بسيطة متوسطة الحال ولكنها شريفة فالأب محمود حسين ينتهى نسبه إلى الإمام على زين العابدين بن الحسين.. وقد ولد مصطفى محمود فى شبين الكوم بمحافظة المنوفية فى ٢٥ ديسمبر ١٩٢١م وسرعان ما انتقلت الأسرة إلى مدينة طنطا لتعيش فى رحاب السيد البدوى وقد تدرج الأب فى السلك الوظيفى من «محضر» براتب ٨٠ قرشا شهريا إلى سكرتير مديرية الغربية براتب ٢٠ جنيها شهريا.. وكان هذا الأب يجيد الفرنسية ويمتلك مكتبة كبيرة مليئة بالكتب الدينية والأدب والشعر.. يعيش حالة تدين حقيقى وعشق للعمل وحب لأسرته والأهم أن هذا

الأب امتلـك قلبا كبيرا وحنونا أفاض بكثير من مشـاعر الحنو والرحمة على ابنه كثير المرض خاصة وأنه طفل شـديد الحساسـية.. حائر وقلق ومتعطش دوما إلى إدراك حقائق الأمور.. كثير التساؤل.. يخلو إلى نفسه يتأمل فيما حوله.. وفى سـن الرابعة ذهب به والده إلى الكتاب ليحفظ القرآن.. واكتشـف الفتى سريعا أنه مختلف عن كل الأطفال فهو أعجز من أن يشـاركهم اللعب والحركة والشقاوة فقرر أن يصنع عالمه الخاص من خلال شـرنقة شـفافة يمارس من خلالها كل فنون الأحلام والخيال والانطواء فعندما يضيق باب النشـاط الجسدى يتسع باب النشاط العقلى والغريب أن كل أحلامه سارت فى طريق أن يكون مخترعا أو مكتشفا أو رحالا أو عالما مشـهورا مثل كريستوفر كولمبس - إديسون - ماركونى - باستير.. وكأن هذا الطفل الموعود بالألم والأشجان قد استشرف مبكرا أن أعظم لذة فى العالم هى الكشف والاكتشاف، الكشف للصوفية وأصحاب الحالات والاكتشـاف للعلمـاء.. وقد تحولت أحلامـه إلى قدرة.. برغم تعثـر البداية والعثـرات الكثيرة التى ملأت كل طريق سـار فيه ولكنه تغلب عليها.. ففى البداية رسب لثلاث سنوات متوالية فى السنة الأولى الابتدائيـة.. وكاد يصاب والده بالغضب واليـأس ويعاقبه أو يبعده عن التعليم نهائيا ليسير فى أى طريق آخر.. ولكن الأب الحنون ازداد حنوا على ابنه والتمس له الأعذار فتارة يشفق عليه لأنه مريض وتارة يسمع لمن يقول بأن الفتى الصغير قد أصابته أزمة نفسية بعد أن ضربه مدرس اللغة العربيـة.. وفى كل الأحوال لم يفقـد الأب الأمل فى أن ينطلق ابنه إلى آفاق رحبة من العلم خاصة وهو يراه عاشـقا للعلوم التى دفعته إلى إنشاء

معمل صغير فى البيت يصنع فيه الصابون والمبيدات الحشرية يقتل بها الحشرات ثم يحاول تشريحها والتعرف عليها.. وبعد أن تجاوز مصطفى محمود عقبة «أولى ابتدائى».

انطلق إلى عالم التفوق مدعوما بمشاعر والده الفياضة.. وفجأة يمرض هذا الأب بالشلل ويظل فى صراع مع هذا المرض الشرس لمدة سبع سنوات ليرحل عن الدنيا فى عام ١٩٣٩م بعد أن أتم مصطفى دراسته الثانوية وكأن الأقدار قد أبت ألا يرحل هذا الأب العظيم إلا بعد أن يطمئن على ابنه.. الذى كان شغوفا بدراسة العلوم ما دفعه إلى قراءة مقررات كلية العلوم وهو فى السنة الأولى من الثانوية.

بعد رحيل الأب قرر مصطفى أن يترك طنطا ويذهب مع والدته إلى القاهرة ليدرس الطب وكأنه يعلن التحدى فى صراعه مع أمراضه إضافة إلى أن دراسة الطب صعبة وتحتاج إلى إرادة وتركيز ونوع من الانقطاع والرهبانية.. وقد اختار دراسة الطب ليعرف أسرار الجسد البشرى وبدأ دراسته بتشريح الضفادع والصراصير وبعض الطيور ثم اشترى نصف جسد آدمى ليدرسه ويعرف السر الخفى بين الموت والحياة.. وقد اشتهر بين زملائه فى الكلية بلقب «المشرحجى» وذلك لعشقه لمادة التشريح.. وقد أكد أكثر من مرة على أن اختياره لدراسة الطب لكونها مهنة تعقد علاقة مستمرة مع الإنسان بمختلف طوائفه وطبقاته.. كما أن الطبيب هو الوحيد الذى يحضر لحظة الميلاد ولحظة الوفاة.. وهما بوابتان لأسرار الإنسان ولذلك يمتلك الطبيب أسئلة كثيرة تبحث عن إجابات.. ولأنه امتلك منذ طفولته وجدان الأديب ومشاعر الفنان فقد اختار الطب لأن

كل الناس يخلعون ثيابهم وأسـرارهم بين يـدى الطبيب.. فهو الوحيد الذى يباشر الحياة عارية من جميع أقنعتها.. وبما أن الطب علم والأدب علم فالتكامل فى الحياة البشرية قضى بأنه لا غنى لأحدهما عن الآخر..

وقبـل أن تتمكن منه «متعة» دراسـة الطـب أصيب مصطفى محمود بمرض السـل ليترك الدراسـة – مؤقتا – ويقيم فى المستشفى لأكثر من عامين.. وكعادته فى صراعه الطويل مع المرض قرر أن يسـتثمر محنته فانكب على القراءة بشـره ونهم لايشبع . فقرأ خلال هذه الفترة الأدب الإنجليزى والأدب الفرنسـى والأدب الروسـى ووقـع فى هوى الأديب الروسى تشيكوف وأصبح أديبه المفضل ، وقد اهتم فى هذه المرحلة بقراءة الإبـداع بعيدا عن الدراسـات حول هذا الإبـداع وإضافة إلى نهم القراءة واصل رحلته مع التأمل الواعى فتكونت بداخله شـخصية المفكر المتأمل وولـد أيضا الكاتب الأديب.. حيث كتب قصصه الأولى وكان يبعث بها إلى صديقه حسـن فؤاد ليرسمها وينشـرها فى جريدة النداء مقابل سبعة جنيهات عن القصة الواحدة.

وكان مصطفى محمود قد بدأ رحلته مع الأدب فى سن مبكرة حيث كتب بعض الأزجال والأشـعار ثم اتجه مع بداية الدراسـة الجامعية إلى كتابة القصة القصيرة مسـتلهما جيل الـرواد فى هذا الفن الأدبى يحيى حقى – محمود البدوى – سعد مكاوى – عبدالرحمن الشرقاوى – يوسف جوهر – أمين يوسـف غراب – محمود تيمور – عبدالرحمن الخميسـى – إحسـان عبدالقدوس.. وفى الوقت نفسـه منافسا لأبناء جيله يوسف إدريس – يوسـف الشـارونى – محمود السـعدنى.. الذين سلكوا قالب

الواقعيـــة الجديـــدة.. وقد جمع د. مصطفى محمـــود بين الطب والأدب وأمام عينيه تجارب العديد من الأطباء الأدباء مثل أحمد زكى أبو شادى – إبراهيم ناجى – محمد كامل حسين – يوسف إدريس.. واستطاع أن يستفيد من الطب فى الأدب ومن الأدب فى الطب.

وبـــدأت رحلتـــه مع الأدب من خلال محطة انطـــلاق عملاقة اسمها عبـــاس محمود العقاد الذى أعجب كثيرا بالقصص التى يكتبها مصطفى محمود ومن شدة إعجابه كان يقرأ هذه القصص على رواد ندوته كل يوم جمعة.. ولم يكتف العقاد بهذا الإعجاب.. ولكنه ســـاعده على نشـــرها فى مجلة الرسالة عام ١٩٤٧م حيث نشر قصة «القطة الصغيرة» وحدث هذا قبل تخرجه فى كلية الطب والتى تخرج فيها بعد ١٣ ســـنة نتيجة تعثره المرضى.. وبعـــد التخرج قرر أن يجمع بين الطب والأدب فاختار تخصص الأمراض الصدرية ربما لينتقم من الســـل الذى هاجمه من قبل بقســـوة.. وتم تعيينه طبيبا فى مستشفى الصدر بالعباسية.. وفى الأدب واصل نشر قصصه فى مجلة الرسالة ثم آخر ساعة والتحرير وأخبار اليوم وروزاليوســـف.. وجاء به صديقه الفنان حســـن فؤاد والذى اكتشـــفه فى كلية طب قصر العينى ليقدمه إلى إحســـان عبد القدوس والذى ضمه فورا إلى كتيبـــة إعداد مجلة صباح الخير بقيادة أحمد بهاء الدين تلك المجلة التى رفعت شـــعار «القلوب الشابة والعقول المتحررة.. وقد صدرت صباح الخـــير فى ١٢ يناير ١٩٥٦م وتولى مصطفى محمود تحرير باب «اعترفوا لى» والذى يعالج المشـــاكل الإنسانية والعاطفية بنشرها والرد عليها ومثل هذا الباب كان يحظى بشـــعبية كبيرة خاصة فى ظل تميز السيدة أمينة

السعيد من خلال بابها «اسألونى» والذى كانت تنشره فى مجلة حواء ثم المصور واستطاع د. مصطفى محمود أن يحظى بثقة قراء المجلة الوليدة وأن يحقق نجاحا كبيرا دفعه لنشر العديد من هذه المشاكل فى بعض كتبه مثل «٥٥ مشكلة فى الحب - اعترافات عشاق».. وقد منحته الصحافة الشهرة والانتشار ووضعته دوما فى بؤرة الأحداث ولكنها لم تستطع أن تنسيه عشقه الأول للأدب فتوالت مجموعاته القصصية «أكل عيش - قطعة السكر - شلة الأنس - إلخ» وبدأ بنشر هذه المجموعات ضمن سلسلة الكتاب الذهبى.. وفى ذات الوقت اشتهر بكتابة المقالة الفلسفية التى تدعو إلى الانعتاق من أسر التقاليد الفكرية والفنية الراسخة والعقيمة.. ومن أسر كل التقاليد البالية - كما كان يحرص على التمرد مع التمسك بالمسئولية.. وقد ناقش فى مقالاته كل القضايا بمرونة واتساع أفق.. وانطلق ليمارس كل أشكال الكتابة.. حيث كان «كوكتيل مواهب» متعدد المواهب والإنجازات فهو الصحفى والكاتب المبدع والمتأمل والرحالة.. والروائى والقصاص والمسرحى والناقد.. وحلال العقد العاطفية.. وكان فى كل كتاباته يركز على نوازع الخير والحب وقيمة الحوار فى التواصل مع الناس والمعرفة الإنسانية.. كما اتسم أسلوبه دوما بالجاذبية مع العمق والبساطة.. وفى كل إبداعاته اتسم بأكبر قدر من المسئولية لإيمانه الدائم بأن الكاتب «مصلح» ومن هذا المنطلق كانت كتاباته تشريحا حقيقيا للمجتمع المصرى.. وظل طوال الوقت عاشقا للكتابة.. بل كان يكتب ليتنفس فالكتابة حياته.. وبرغم كثرة كتبه وأهميتها كان يقرؤها فيجدها مجرد مسودات سريعة

يتمنى لو يعيد كتابتها مرة أخرى.. فهو لا يرضى أبدا عما يكتبه وبرغم ذلك امتلك الرضا الروحى انطلاقا من أن الناقص لايمكن أن يكون كاملا فالكمال لله وحده.. وكان الدكتور مصطفى محمود لايكتب إلا إذا تبلورت الفكرة وأصبحت واضحة.. فإذا تبلورت الفكرة يكتب فى أى وقت وفى أى مكان بشرط أن يكون لديه الجديد الذى يستحق الكتابة.. ويفضل الكتابة ليلا.. وكان يكتب نائما على سريره، ومكتبه مجرد لوح خشبى بسيط.. وكان يرى فى الكتابة الزمن الداخلى الذى يعيش فيه كل شىء من جديد.. ويرى أن الإبداع لديه هو الإتيان بالجديد النافع للناس وهو هبة من الله.. وقد جمع فى أدبه بين إحساس الأديب وإدراك الفيلسوف بأسلوب عصرى فيه عمق الفكرة ودفء العبارة.. وجاءت كل كتاباته الأدبية مليئة بالشجن والحزن الخفى وأبطاله كأنهم أطفال بسطاء أطهار يمدون أيديهم إلى النجوم ليمسكوا بها ولكن هيهات ... وقد اتسمت قصصه بالأفكار البراقة والأساليب الرشيقة.. وظل مصطفى محمود يزاوج ما بين الطب والأدب حتى عام ١٩٦٠م عندما أصدر الرئيس عبدالناصر قرارا بمنع الجمع بين وظيفتين.. وكان مصطفى محمود يتقاضى ٦٠ جنيها شهريا من روز اليوسف، ٤٠ جنيها من المستشفى ومع ذلك قرر أن يتفرغ للكتابة والأدب وطلب من إحسان عبد القدوس أن يرفع راتبه إلى ١٠٠ جنيه فوافق على الفور.

وبرغم اعتزاله الاضطرارى للطب إلا أنه لم يتخل أبدا عن الرؤية العلمية تلك الرؤية التى ملأت الكثير من أدبه وجعلته يتنبأ بالكثير من الاكتشافات العلمية برغم أنه لايكتب «خيال علمى» فقد تنبأ بعملية

أطفال الأنابيب والقطارات المغناطيسية والطوابع التى تهرب من خلالها المخـدرات تنبأ بكل هذا قبل ظهـوره بربع قرن وذلك فى روايته «رجل تحـت الصفـر» والتى صدرت فى عـام ١٩٦٦م.. ولم تمنعه هذه الرؤية العلميـة من التحليق الروحـى ذلك التحليق الذى جعلـه يكتب رواية «العنكبـوت» فـى يوم واحد لأنه رأى أحداثها كاملـة فى منامه.. وفى كل أحواله كان فنانا حكاء وذكيا واسع الخبرة والتجربة.. وقد تمخض مشـواره الأدبى عن العديد من الكتب منها ثمان مسرحيات «الزلزال – الإنسان والظل – الإسكندر الأكبر – الزعيم – أنشودة الدم – شلة الأنس – الشـيطان يسكن فى بيتنا – زيارة الجنة والنار وعدد من المجموعات القصصيـة بدأها بمجموعة «أكل عيش» وعدد من الروآيات الطويلة منها «المسـتحيل – رجل تحت الصفر».. وفـى كل أحواله كان يكتب بكرم كبير «يكتب كثيرا» وينشر ببخل شديد «ينشر قليلا» .

ولأن مصطفى محمود امتلك شخصية مترامية الأطراف وروحا شديدة الخصوبة فمن الصعوبة الإحاطة بأطراف هذه الشخصية التى جمعت ما بين صوفية الروح.. وعملية العقل والإنسـانية فى أرقى صورها.. ولذلك إكتفينا فقط ببعض الإشارات والمحطات المهمة فى رحلة إبداعه.

❑❑❑